

بإمكانه أن يجد السبيل مفتوحاً أمامه إلى ملكه . وفي مجلس البويلر كان شعلة نشاط . وكان أعضاء هذا المجلس يحق لهم بكامل حريتهم أن يدافعوا عن آرائهم حتى ولو كانت متعارضة مع رأيه . وفي بعض الأحيان كان أرداتشيف يعارضه بشكل صريح دون أن يحمل عليه أية ضغينة . وفي أغلب الأحيان كانت آراء أرداتشيف الصائبة تقود خطاه ويتبعها بينما في حالات أخرى كان يصر على رأيه كما حدث في موضوع الحرب في ليفونيا وكان أرداتشيف ينصاع في النهاية إلى أوامر القيصر . لم يكن يقطع الرؤوس ولا يحرق الناس في المحارق ومع ذلك كانوا يطيعونه كما لم يطيعوا أي حاكم غيره ؛ ولو أنه طلب إلى شخص « أن يشنق نفسه » فإن ذلك الشخص يخرج طواعية لتنفيذ الأمر . وقد ترك الرجال شعورهم تنمو وتطول عندما أعجبه ذلك ولم يعودوا إلى الحلاق إلا عندما عادت البسمة إلى شفثيه .

وعند أداء واجباته الدينية كان القيصر يظهر ورع رجل من رجال الدين الذين كانوا يعيشون في القرون الوسطى كما كان مخلصاً بشكل ملحوظ للكنيسة وللمتروبوليت ماكاري . ولم ترتد إصلاحاته ثوب الاغتصاب والاستلاب الذي قدر لها البعض أن ترتديه . وكان همه الأساسي هو أن يكون الرهبان رهباناً حقيقيين يقيمون الصلاة لا تجاراً ولا مزارعين لأن فساد الأخلاق إنما أتى من التجارة والجري وراء المنافع . وكان يشجع التقشف والزهد حتى أنه لم يشهد أحد مثل ما قام به من صوم لا من حيث الشدة ولا من حيث عدد الأيام . وكان يوزع الصدقات بسخاء وعلى أوسع نطاق كما أنه أنفق الكثير من الأموال على بناء الكنائس . وقد ارتفعت الكاتدرائية التي أمر ببنائها في الميدان الكبير دليلاً على شكره لله على النصر الذي منحه إياه في فزان ، ارتفعت رائعة الجمال أمام عينيه وأطلق عليها اسم كاتدرائية الشفاعة للسيدة العذراء . وبعد ست سنوات من بدء حفر أساساتها كان بناؤها قد تم . ولم يكن قد أتى بعد فاسيلي بلاجهيني أو (فاسيلي البريء) لينتقص من قدر القيصر بسبب خطاياهم فينسب اسمها إليه . والخلاصة أنه لم يكن في حياة إيفان ما يمكن أن يلام عليه .